نفس كبيرة ثائرة وعقل راجح حكيم :

السيد جمال الدين الأفغانى

للأستاذ حمدى الحسينى

— ٣ —

أقام السيد جمال الدين فى الهند فترة من الزمن وضع خلالها رسالته فى الرد على الدهريين . وما أن حدثت ثورة عرابى فى مصر حتى أسرعت حكومة الهند فوضعته فى نطاق من الرقابة الشديدة خشية أن تهب نسمة من روحه القوية على تلك الحركة الثورية فتزيد فى اشتعالها وتؤجج من نيرانها فتقطع على الاستعمار الانكليزى طريقه إلى مصر واحتلال مصر . ومذ اطمأن الانكليز على خطتهم فى مصر سمحوا له بمغادرة الهند فغادرها إلى باريس حيث التقى بصديقه الأستاذ العلامة الشيخ محمد عبده رحمه الله فأصدرا جريدة العروة الوثقى لدعوة المسلمين إلى الوحدة الإسلامية تحت لواء الخلافة العظمى حتى اشتدت مقاومة الاستعمار الانكليزى لها فأغلق دونها أبواب الهند ومصر فتوقفت عن الصدور ، وكان قد وصل فى ذلك الوقت صدى تلك المقالات القوية التى نشرتها العروة الوثقى عن الاستعمار الانكليزى فى البلاد العربية والإسلامية إلى لندن ، وكانت حركة المهدى لا تزال فى السودان مندلعة النار فيتخذ الاستعمار الانكليزى من الحجة فى إخمادها وسيلة للسيطرة على مصر والتدخل فى شئونها . فاستدعى سالسبرى رئيس وزراء انكلترا فى ذلك الوقت السيد جمال الدين بحجة استطلاع رأيه فى المهدى وظهوره وقصده الحقيق أن يحلل هذه النفس الكبيرة بما عنده من جاه وسلطان ظنا منه أن مثل هذه النفس تلين بمثل هذا الإغراء الرخيص الذى كان الاستعمار يستعين به على كم أفواه الرجال فذهب جمال الدين إلى لندن واجتمع بسالسبرى اجتماعا عرض سالسبرى فيه على السيد جمال الدين أن يعينه سلطانا على السودان ليستأصل جذور فتنة المهدى ويمهد السبيل لإصلاحات بريطانيا فيه : « تكليف غريب وسفه فى السياسة مابعده سفه » بهذا أجاب السيد جمال الدين رئيس وزراء بريطانيا العظمى ثم قال له : هل تملكون السودان حتى تريدون أن تبعثوا إليه بسلطان ؟ مصر للمصريين والسودان جزء منها . وصاحب الحق الخليفة الأعظم هى يرزق ولديه من الجيش المادى والمعنوى ما يتذلل معهما كل صعب وفتنة فى الكون الإسلامى وأجزاء ممالكه . قال هذا وخرج ثم عاد إلى باريز فالتقى بالفيلسوف الفرنسى — رينان — وجرى بينهما حديث فى العلم والإسلام وحقيقة القرآن والعمران (فشهد له رينان بصحة العلم وقوة الحجة ورجع عن كثير من آرائه فى أن الإسلام والقرآن مانعان للحضارة والعمران

قضى السيد جمال الدين ما يزيد على الثلاث سنوات فى باريز بذل خلالها من الجهود العظيمة الموفقة فى مكافحة الاستعمار الاوربى الطامع فى البلاد العربية والإسلامية ما جعل هذا الاستعمار يشعر بالقلق والاضطراب فى حركاته وسكناته والخوف والقلق على آماله وغاياته . وبينما كان هذا النسر الخالق فى سماء مجده يهم برحلة واسعة شاملة فى البلاد العربية إذ يشاء إيران يستقدمه إلى طهران فآثر تلبية الدعوة وذهب إلى طهران فاستقبله الشاه بالإكرام والاعظام واسند إليه وزارة الحربية فى حكومته وجعله فوق مستشاره الخاص ، فعمل أعباء عمليه العظيمين فى الدولة وراح يرشد الشعب الفارسى إلى ما له من حقوق وما عليه من واجبات فالتفت حوله أمراء البلاد وعلماؤها وأقسموا له بأن يصدعوا بما يأمرهم به فأوجس الشاه خيفة فتنكر له ، فرأى أن يستأذن الشاه بمغادرة البلاد فغادرها إلى روسيا وكانت شهرته قد سبقته إليها فاستقبل فيها بالاجلال والاحترام . ودعاه القيصر واجتمع به وسمع حديثه عن أسباب الخلاف بينه وبين شاه ايران ، فقال له القيصر إنى أرى الحق فى

جانب الشاه إذ كيف يرضى ملك أن يحكم فيه فلاحو مملكته . فقال له جمال الدين أعتقد بجلالة القيصر إن عرش الملك إذا كانت ملايين الرعية أصدقاء له خيرا من أن تكون أعداء يترقبون الفرص ويكنون في الصدور سموم الحقد ونيران الانتقام . فغضب القيصر وأومأ إلى رجال بلاطه بأن يخرجوه من بلاده بأقصى حدود السرعة . فخرج منها إلى أوروبا وأخذ يتنقل في عواصمها حتى التقى في ميونيخ بصاحبه شاه ايران ثانية فاعتذر له الشاه عما فرط منه نحوه ، ودعاه لمرافقته إلى طهران فقبل جمال الدين الدعوة وسار معه إلى بلاد فارس . ولم تكد رجلاه تطآن أرض فارس حتى عاد الناس فالتفوا حوله كما فعلوا في المرة الماضية وقد كلفه الشاه هذه المرة أن يضع ما يراه مناسبا للمصلحة العامة من القوانين ، فسن قانونا أساسيا للمملكة يقضي بأن تكون الحكومة ملكية شورية (دستورية) ولكن ما كاد الشاه يطلع على ذلك حتى طار صوابه. فقال للسيد جمال الدين : أيصح يا حضرة السيد أن أكون وأنا ملك ملوك الفرس كأحد أفراد الفلاحين ؟ فقال له جمال الدين اعلم يا حضرة الشاه أن تاجك وعظمة سلطانك وقوائم عرشك ستكون بالحكم الدستوري أعظم وأنفذ وأثبت مما هي الآن . فنفر منه الشاه وأعرض منه فأحس بهذا النفور فاستأذن بالذهاب إلى بلدة (شاه عبد العظيم) فأذن له . فذهب إليها وتبعه عدد كبير من الزعماء وقادة الرأي في البلاد فخاف الشاه عاقبة ذلك فأمر بالقبض عليه فانتزع من فراشه وهو محموم وأوصل إلى حدود العراق ، فذهب إلى البصرة وأقام فيها حتى عادت إليه صحته فغادرها إلى لندن . وهناك جاءته من عبد الحميد دعوة إلى الآستانة فذهب إليها وكان في استقباله ياور السلطان فسأله أين الصناديق أيها السيد ؟ فقال له : ليس معي غير صناديق للثياب وصناديق للكتب . فقال الياور أين هي ؟ فقال جمال الدين أما صناديق الكتب فها هي ، وأشار إلى صدره ، وأما صناديق الثياب فهذه وأشار إلى جبته . ذهب السيد جمال الدين لمقابلة السلطان فاستقبله أحسن استقبال وأرسله إلى قصر كان قد أمر باعداده له . وما أن خرج من حضرة السلطان حتى قال له كبير الياوران في شيء من الاستغراب والعتاب : ان اجلال السلطان لحضرتك لم يسبق له مثيل . واليوم رأيناك تخاطبه بلهجة غريبة وأنت تلعب بالسبحة في حضرته . فقال له جمال الدين : سبحان الله ! أن جلالة السلطان يلعب بمقدرات الملايين من الأمة على هواه ولا يعترضه منهم أحد ؛ أفلا يكون لجمال الدين حق أن يلعب بسبحته كيف يشاء ؟ !

أما إكرام السلطان لجمال الدين واحتفاؤه به وإقباله عليه فكان عظيما جدا . وأما إعجاب جمال الدين بالسلطان فكان إعجابا آخذا عليه جوانب نفسه ؛ ولكن إعجابه هذا بالسلطان لم يمنعه من أن يقول له في صراحة ووضوح وفي شجاعة وعزم : خذ بعزم جدك محمود ، واقص الخائنين من خاصتك ، واظهر للملأ ظهورا يقطع من الخائنين الظهور ، واعتقد أن نعم الحارس الأجل . مما جعل السلطان يتنفس الصعداء ويعتذر له عما دعاه إليه بما في بيئته من الفساد ، ويعده أن يفعل ما دعاه إليه في المستقبل

قد عرض السلطان على جمال الدين مشيخة الإسلام ليصلحها فأبى ذلك وطلب من السلطان أن يعمل عملا يتغير معه شكل الحكم تغييرا أساسيا وهو يعني بهذا الرجوع إلى الشورى في الحكم ، كما عرض عليه أضخم الوظائف وأعلى الرتب وأسمى النياشين فرفضها كلها قائلا : إن وظيفة العالم ليست بمنصب ذي راتب بل بتصحيح الإرشاد والتعليم ، وبتبيته ما يحسن من العلوم مع حسن العمل بالعلم

قضى جمال الدين في الآستانة أربع سنين ضيفا على السلطان كان خلالها حركة خير دائمة ، بوعظه وإرشاده حتى دهمه داء السرطان فات رحمه الله سنة ١٨٩٧ ميلادية (١)

رمى السرطان الليث والليث خادر ورب ضعيف نافذ الرميات

(١) اعتمدنا في كتابة هذا المقال على كتاب : خاطرات جمال الدين الأفغاني الحسيني . تأليف محمد باشا المخزومي طبعة بيروت سنة ١٩٣١

محمد عزة الحسيني